# ثنائية الحياة والموت في شعر صفي الدين الحليّ ( ت ٧٥٠هـ )

أ.د ياسر علي عبد الخالدي — الباحثة/ منار حميد خلف
كلية الآداب/ جامعة القاسية — كلية الآداب/ جامعة القاسية

**المُلخص :**

احتلت لفظةُ الموتِ مساحة واسعة في الشعر العربي , واستعمل الشعراء الفاظاً قريبةً من لفظة الموت كالهلاك والردى والمنيّة وغيرها , ونجد أنَّ هناك علاقة مُتضادة بين لفظتي (الحياة , الموت) , وحين يذكر الشاعر لفظة الموت يتبادر الى ذهن المتلقي لفظة الحياة , وصفي الدّين الحليّ من الشعراء الذين استعملوا لفظة الموت وضدها أو ما يقابلها وهي الحياة , فشكّل منهما ثنائية ضدية , وجدت في اغراضه الشعرية المتنوعة وخاصة غرضي الرثاء والفخر , وهذه الثنائية حملت لنا مشاعر وتجارب الشاعر الشعورية , وجعلت القارئ يشترك في البحث عن المعاني الكامنة خلفها , محاولا فك رموز النص من خلالها , ولهذه الثنائية أهمية في الشعر لما تؤديه من وظيفة دلالية عميقة اضافة الى ما تضفيه على النص من جمالية فنية .

**الكلمات المفتاحية** / ( ثنائية , حياة وموت , صفي الدين الحلي )

**مدخل/**

إنّ الحديث عن الموت هو قرين الحديث عن الحياة , والحياة ضد الموت , والموت كما عرفّه الجرجاني : ((صفة وجودية خُلقت ضِداً للحياة)[1]( أي هو نهاية الحياة).

وبما إنّ الموت هو مفارقة الروح للجسد ، أو كما قيل صفة وجودية ضد الحياة ، فالموت نوعان (روحي ، جسدي) فالإنسان يعبر عن الحياة التعيسة التي يعيشها بالموت وهذا الذي قصدناه بالموت الروحي ،

فالموت والحياة نقيضان لا يجتمعان ، والموت هو التوقف عن الحياة[2] . فالموت الروحي هو الحياة التعيسة التي يعيشها الانسان ، والموت الجسدي هو مفارقة الروح للجسد وانتهاء العمر بموت الانسان .

ولقد كان العرب الرحُل غالباً ما يحتكون بالموت ويتحدونه ، وذلك بسبب الحياة التي كانوا يعيشونها في الصحراء ومواجهة المخاطر ، لذا فالموت أحتل مكاناً كبيراً في الشعر العربي ، وفي الاغراض الشعرية ، فالموت يمنح تلك الاناشيد الحماسية أن تتجدد، والشاعر العربي وجد المبرر لتطوراتهِ الاخلاقية في تأكيد حتمية الموت ، فمع ذكرهُ بإيجاز ولكن بكثرة ، ويكون محدوداً في القصائد التي يندرج فيها ولكنه موضوع مركزي ، فهكذا يظهر موضوع الموت في الشعر العربي واستعمل الشعراء العرب العديد من الالفاظ الدالة على الموت كـ (المنية ، الردى ، الهلاك , والحتف ، المنون وغيرها)[3] . فالموت وجد في الشعر العربي بمختلف الاغراض وحين يحضر الموت لابُدّ ان يحضر ما يقابله إلا وهو الحياة .

ويُعتبر الموت نقيض الحياة وضداً لها، والموت ظاهرة طبيعية قال تعالى: "كُلُّ نفسٍ ذائقةٌ الموت " .[4]

وفي الشعر العربي قدّم الشعراء منذ عصر الجاهلية صورهم الشعرية على هيئة صراع وجودي بين الموت والحياة ، من خلال البناء اللغوي الذي اظهر وعيهم ، وحسهم الانساني بأبعادِ هذا الصراع بعد أن عاشوا تناقضات عدة في الحياة ، وأسسوا رؤيتهم المُفسرة للأمور المتنوعة في البيئة الاجتماعية التي ينتمون اليها [5] . أي أنّ الحياة والموت عُرفت كثنائية ضدية في الشعر العربي القديم منذ الجاهلية وانمازت الصورة لديهم ؛ لأنها عبرت عن تناقضات حياتهم .

إنّ موضوع الموت يحمل الكثير من التناقضات ، ويجمع بين اليقين وعدمه ، فالإنسان يعرف أنّهُ بالضرورة سوف يموت والموت مُقدرٌ عليه ، ولكن لا يعرف متى سيكون ذلك أو متى سيحدث[6]. فالمفارقة تكمن في معرفته من حتمية الموت لكن دون معرفة وقت مجيء الموت ,

والموت عند الفلاسفة كما ذكر ابن سينا : ((هو الغاية القصوى للنفس لأنّ فيه خلاصها ))[7]. أي خلاص النفس من الجسد .

كما ذهب سقراط إلى تعريف(( الفلسفة بأنّها معرفة الموت ))[8]. فاعتبر الموت من فلسفة الحياة .

إذن الموت كما كان يعتقد سقراط : هو السبيل إلى تحرير الفكر ولن تستطيع النفس أن تُدرك أيّ شيء على حقيقتهِ إلا أذا قطعت كُلّ ما يربطها بالجسم ، لأنّهُ يعوقها عن معرفة الامور على حقيقتها . [9] .

ففي تحرير النفس من الجسد تحرراً للفكر .

وبذلك نجد أنّ خلاص النفس الانسانية هو مفارقة الجسد والموت هو السبيل إلى ذلك ، ومُجرد ذكر لفظة الموت يتبادر إلى الذهن ما يقابلها وهي لفظة الحياة ، وجاء ذكرها في القرآن الكريم كثنائية في قوله تعالى : " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. [10] "

((والموت يكشف لنا النقاب عن الذات الحقيقية للإنسان ، واولئك الذين ينظرون إلى بُعد أعمق يعرفون أنّ الموت لا يبدأ بالموت الطبيعي, وانّما هو يُختتم وينتهي به فهو لا يعدو أن يكون زفرة للموت الداخلي أي موت الشاعر))[11]

والمعروف عن الموت أنّهُ القوة القاهرة التي تسلب الانسان ارادته وتجعله مقيد, فيتحول بها من الحياة والحركة ,والتي نعتبرها حالة ايجابية الى الحالة السلبية المتمثلة بالموت[12] , فالموت والحياة لا يجتمعان في الحقيقة لأنّ أحدهما نقيض الآخر ، لكن ممكن اجتماعهما في الأدب كثنائية ضدية يريد منها الشاعر تقريب المعنى الذي يهدف إيصاله للمتلقي.

ونجد ثنائية الحياة والموت في شعر صفي الدين الحليّ في أغراض الشعر المتنوعة في ديوانه وخاصةً في غرض الرثاء فلهُ النصيب الأكبر من هذه الثنائية ، ومنهُ ما وجدناهُ في رثاء خاله صفي الدين بن محاسن الذي قُتل غدراً إذ يقول : [13](المنسرح )

ما عُذرُنا وَالسُيوفُ قاطِعَةٌ ... وَأَمرُنا في العِراقِ مُنتَظِمُ
وَحَولَنا مِن بَني عُمومَتِنا ... كَتائِبٌ كَالغَمامِ تَزدَحِمُ
بِأَيِّ عَينٍ نَرى الأَنامَ وَقَد ... تَحَكَّمَت في أُسودِنا الغَنَمُ
أَمّا مَماتٌ وَذِكرُنا حَسَنٌ ... أَما حَياةٌ وَرَبعُنا حَرَمُ

يضع الشاعر نفسهُ وابناء عشيرتهِ في طريقين أحدهما طريق الموت بشجاعة وبسالة وفخر وطيب الذكر والثاني طريق الحياة المليء بالذلة والخنوع والتخاذل فخلفَ هذين الطريقين تكمن ثنائية (الحياة والموت) ؛ لانّ الحياة والموت طريقان متقاطعان والشاعر فضل الموت لان فيه العزة والكرامة والذكر الخالد، فموته كان بشجاعة برزت من خلال الآخذ بالثأر لموت خاله . هذا المعنى قدمهُ لنا صفي الدين الحلي في صورة (الموت والحياة) من خلال استعماله لهذه الثنائية الضدية اللفظية ،

وكان الموت هو المعنى الاقوى لدى الشاعر فأستدعى ضده وهو الحياة . ونجد مثل هذا المعنى في رثاء الشاعر لأخيه من أبويه الذي توفي في نفس السنة التي توفي فيها أبنا عميه وولده ومملوكه وصديقاً له إذ يقول: [14]( الطويل )

أَرى العَيشَ في الدُنيا كَأَحلامِ نائِمٍ ... فَلَذّاتُها تَفنى وَأَحداثُها تُفني

فَمِن حادِثٍ جَمٍّ صَفَقتُ لَهُ يَدي ... وَمِن فادِحٍ صَعبٍ قَرَعتُ لَهُ سِنّي
أَفي السِتِّ وَالعِشرِينَ أَفقُدُ سِتَّةً ... جِبالاً غَدَت مِن عاصِفِ المَوتِ كَالعِهنِ
فَقَدتُ اِبنَ عَمّي وَاِبنِ عَمّي وَصاحِبي ... وَأَكبَرَ غِلماني بِها وَأَخي وَاِبني

الشاعر يبدأ بالاستسلام للموت لأنّهُ نهاية كُلّ شيء والدنيا كالحُلم نعيشه لحظات ، فكل ما في الحياة من عيشٍ مُر وحوادث صعبة زرعت في الخوف ، فالشاعر يتحدث عن حادثات الدهر التي ألمت به لفقد أحبائهِ من أخيه وأبنه وغلامه وأبني عمه وصاحبه في سنة واحدة ، هذه الالآم والاوجاع التي بثها لنا صفي الدين الحلي بمشاعر صادقه قريبة إلى النفس تلامس أحساس القارئ من خلال ثنائية (الحياة ، الموت) في الثنائية الضدية المعنوية (العيش ، تفنى) ، وبهذه الثنائية أستطاع الشاعر أن يُعطي النص الاثراء الدلالي ,أضافةً إلى الملامح الجمالية في النص ، حتى نرى الشاعر أضاف إلى النص المزيد من الافكار التي تكمن في داخله ، فقد ترجم لنا مشاعر اليأس التي عاشها في الحياة ، ومن هذه الافكار أنّ الحياة مُجرد حُلم ينتهي بسرعة بعد الاستيقاظ على حقيقة الموت ، وبذلك عزز المعنى وجعلنا نصل إلى تلك المشاعر والافكار من خلال بنية التضاد (الحياة ، الموت) . وبهذا تتضح أهمية الثنائيات الضدية في النسق الشعري.

إنّ لثنائية الحياة والموت دور مهم في الشعر , فهي تثير هموم إنسانية حاضرة في نفس الشاعر, وعمله هو مُحاولة اكتشاف حقيقته المُرة , وهذا يُلّد لديه تناقضات شعورية ادت الى ظهور الثنائية التي تحمل الموت والحياة

فالموت يصطاد صاحب الحظ السيء ، وهو ليس اختياراً إنّما فرض على الانسان[15] . فهذه الثنائية تثير المشاعر الانسانية الحزينة .

والشاعر وجد في غرض الرثاء الحيز الاكبر للحديث عن ثنائية (الحياة والموت) ومنهُ ما قالهُ في رثاء السلطان الملك المنصور : [16]( الخفيف )

لَم أَكُن جازِعاً وَأَنتَ قَريبٌ ... لِبُعادِ الأَهلينَ وَالأَنسابِ
كانَ لي جودُكَ العَميمُ أَنيساً ... في اِنفِرادي وَمَوطِناً في اِغتِرابي
ما بَقائي مِن بَعدِ فَقدِكَ إِلّا ... كَبَقاءِ الرِياضِ بَعدَ السَحابِ

انّ مشاعر الحزن تسيطر على الابيات ، وبيّن الشاعر حالة الحزن والجزع لفقد السلطان ؛ ذلك لأنّ وجوده وقربه كان يواسي الشاعر في الحياة المريرة لترك أهله وأحبائهِ والتغرب عنهم مُرغماً ، فكان الملك أنيساً لهُ في وحدتهِ ووطناً في غُربته ، ولكي يتعمق الشاعر في المعنى ويكشف للمتلقي حقيقة الجزع والحزن رسم صورة الموت في الثنائية الضدية المعنوية (الفقد ، بقاء) وقابلها بصورة الحياة ، فكانت المعاني متلاحقة

فبقاء الشاعر في الحياة ليس لهُ معنى كالرياض الذي تركهُ السحاب بعد أن أغدق عليه المطر ، فهنا تشبيه السحاب الممطر بالملك لشدة كرمه وعطائهِ ، وبذلك عبر الشاعر عن أحزانهِ وشدة تألمه للفقيد وفراقه الذي ترك في نفسه وحياتهِ أثراً عبرَ عنه في ايراد المعنى العميق ,

فالتضاد موجود في طبيعية الحياة الانسانية ، والشاعر عاشها وجعلها جُزءاً من تجربته الشعورية , ووظفها في تواصله مع الاخرين وفي التعبير عن المضمون الشعري فيها ، فالحياة تتشكل من التضاد والشاعر أينما نظر رأى امام ناظرهِ ثنائيات تتشكل كثنائية (الحياة ، الموت)[17] . فالحياة بكل تفاصيلها عبارة عن تناقضات .

لذا فالشاعر صفي الدين الحليّ جعل المعاني متخفية خلف الثنائيات الضدية، والتفكير فيها يُوصل المتلقي إلى تلك المعاني العميقة,

ونجد هذه الثنائية الضدية (الحياة، الموت) في رثاء صفي الدين الحلي لغلامه إذ يقول :[18] (الخفيف )

وتفردتَ بالنعيمِ من العيشِ وابقيتَ لي العذابَ الأليما
فسقى عدلُ العهاد فقد فزت بزلفى الجنان فوزاً عظيماً
وعليك السلام حياً وميتاً ورضيعاً ويافعاً وفطيماً

الشاعر أعتبر الموت هو النعيم والحياة عذاب لمن بقي فيها، وبذلك فهو يواسي نفسهُ الحزينة المتألمة، وصرح بالسلام على غلامه في حياتهِ ومماتهِ لما لهُ من أثر تركهُ خلفهُ في الحياة ، والثنائية الضدية اللفظية (حياً ، ميتاً) أسهمت في ايصال المعنى عَبر الايحاءات الدلالية فتركت لنا أثراً جمالياً ، اضافةً إلى ما تركهُ التضاد من تصارع فكري نحو العالم وما فيه من تناقضات متمثلة بالـ (الموت ، الحياة) .

وأستعمل الشاعر ثنائية (الحياة، الموت) في بعض تعازيه ومنه عزاء وجههُ إلى الصاحب الحاج شرف الدين بن فخر الدين لوفاة والده قائلاً : [19]( الوافر)

فَمَرجِعُ كُلِّ حَيٍ لِلمَنايا وَغايَةُ كُلِّ مُلكٍ لِلذَهابِ
بَنو الدُنيا فَرائِسُ لِلمَنايا وَنابُ المَوتِ عَنها غَيرُ نابِ
وَمَن يَغتَرُّ في الدُنيا بِعَيشٍ فَقَد طَلَبَ الشَرابَ مِنَ السَرابِ

فالشاعر جنح إلى تصوير الموت وتظهر براعتهُ في هذا التصوير من خلال الحركة التي اضفاها على النص ، فصور الموت بالصياد أو المفترس الذي ينتظر الفريسة لينقض عليها ، فهذا الابداع في التصوير يقوم على الحركة والصراع مع الموت ، فهو نهاية كل شيء .

والانسان هو الوحيد الذي يتعبه التفكير بالموت فهو دائم القلق من كثرة التفكير بالموت[20] . والحركة تولدت من الثنائيات الضدية في النص الشعري .

فكانت الثنائية الضدية (الحياة ، الموت) من الثنائيات التي اوردها الشاعر وهي ثنائية ضدية معنوية (حي ، منايا) (الدنيا ، الموت) فكانت الحياة هي الفريسة التي يتربص بها الموت ، ومن خلال تلك المتضادات ازدادت الدلالات فيه .

وربط الشاعر المعنى بحال الصياد المتربص لفريسته ؛ لانّ هذه هي حقيقة الحياة التي يعيشها الانسان , فكل خطواته نحو الحياة تحمل معها شبح الموت ، والنص الشعري مفتوح على عدة دلالات ، والصورة هنا متنوعة بين الحياة والموت ، فالنص الشعري ينبض بالحيوية وديمومة الحركة , وبذلك خرج عن الدلالة الثابتة[21] . أي أنّ تعدد الدلالات يضيف الحيوية والجمالية للنص الأدبي.

وفي انتقاله لغرض آخر وهو غرض الحكمة فنجد فيه حضوراً لثنائية (الحياة والموت) فصفي الدين الحلي من الشعراء الذين يصوغون الحكمة من العبارات والكلمات العامة وهذا ما وجدناه في غرضي الرثاء والفخر, فمثل هذه الاغراض تحتاج الى الحكمة للتأكيد على الفضائل السامية [22] . أي أنّ الحكمة لديه مُصاغة أو مُنتزعة . ومنه قوله:[23]( الخفيف )

فلئن قلّت الحوادث حدي بعدما أخلصَ الزمانُ انتقادي
فلقد نلتُ من مُنى النفسِ ما رُمتُ وادركتُ منهُ فوق مُرادي
وتحققتُ أنّما العيشُ أطوارٌ وكُلّ مصيرهُ إلى نفادِ

يذكر الشاعر حوادث الدهر وجور الزمان عليه ، إلا انّهُ بالرغم من تلك الحوادث فقد أخذ من الدُّنيا ما تتمنى النفس وادرك فوق ما تمنى ،وجعل الشاعر خاتمة قصيدتهِ ببيتٍ من الحكمةِ والموعظةِ المُنتزعة من تجربتهِ في الحياة وهي أنّ الحياة غير مُستقرةٍ على حال ، فلا استقرار في الدنيا ثم يختم بقوله أنّ كلّ ما في هذه الدنيا مصيرهُ إلى الانتهاء , فلا يبقى شيء على حاله [24]. فلا خلود في الحياة ولا استقرار .

والقصيدة تحركت في رحابٍ واسعٍ من الثنائيات الضدية ، وهذا الثنائيات اضافت عنصر الدهشة والاثارة في النص , فاللغة دلت على الاثنين بدل الواحد؛ ولذلك الشاعر لم يُكرر لفظة الحياة ،[25] , فكلا اللفظتين دلت على شيء واحد , والانسان من خلال اكتشافه أنّ الموت نهاية مُقدرة عليه ينتابه شعور بلعبة الحياة , وأنّها مُجرد لهو[26] . أي أنّ النهاية هي الموت ، والحياة مجرد عبث ولهو .

فكانت الثنائيات الضدية المعنوية (العيش ، النفاذ) تحمل ثنائية الحياة والموت المتوارية خلف بنيات التضاد وكُلّ معنى متواري خلف المنظور الشعري يُدركهُ المتلقي ويكشف عنه .

ونجد أنّ الشاعر يبدأ قصائده في الرثاء بمقدمة في الحكمة لتكون جزءاً من الغرض ومنه قوله:[27]( الكامل)

خَفِّض هُمومَكَ فَالحَياةُ غُرورُ وَرَحى المَنونِ عَلى الأَنامِ تَدورُ
وَالمَرءُ في دارِ الفَناءِ مُكَلَّفٌ لا قادِرٌ فيها وَلا مَعذورُ
فَالناسُ وَالمَلكُ المُتَوَّجُ واحِدٌ لا آمِرٌ يَبقى وَلا مَأمورُ

فنجد في هذه المقدمة حكمة صرح بها الشاعر مفادُها أنّ الموت لا يترك أحداً من البشر والكل هدف مُحدد لسهامه ، وعلى الانسان مهما أصابهُ من هم وحُزن أن لا ينشغل بالحياةِ وهمومها فمصيرها إلى الزوال ، والثنائيات الضدية التي شحن بها الشاعر فضاء قصيدته منها اللفظية والمعنوية في (فناء ، بقاء) ، (حياة ، منون) أخفت ورائها دلالات متعددة منها عذابات وهموم الروح وعمق المعنى عن (الحياة ، الموت) ورُبما كانت الاحداث التي مرّ بها الشاعر من حزن وألم وفراق جعلته يلجأ إلى ثنائية (الحياة والموت) ليُعبر عما ارادهُ في حكمة صاغها للمتلقي .

وفي مقدمة عن الحكمة والموعظة في غرض الرثاء نجد المعنى ذاته عن الحياة والموت مع براعة الشاعر في استعمال التضاد في النص الشعري وذلك في قوله :[28] ( البسيط)

حَبلُ المُنى بِحِبالِ اليَأسِ مَعقودُ وَالأَمنُ مِن حادِثِ الأَيّامِ مَفقودُ
وَالمَرءُ ما بَينَ أَشراكِ الرَدى غَرَضٌ صَميمُهُ بِسِهامِ الحَتفِ مَقصودُ
لا تَعجَبَنَّ فَما في المَوتِ مِن عَجَبٍ إِذ ذاكَ حَدٌّ بِهِ الإِنسانُ مَحدودُ
وَلِلمَنِيَّةِ أَظفارٌ إِذا ظَفِرَت رَأَيتَ كُلَّ عَميدٍ وَهوَ مَعمودُ

يبدأ الشاعر قصيدته بذكر الموت وأنّه مُكتوب على الانسان , فكلّ شيءٍ سينتهي ويُعيد تكرار المعنى في عدة أبيات بصياغة مُختلفة ، فيتوصل الى مُخالفة الفلاسفة الذين يؤمنون بخلود العالم العلوي ، فذكروا في فلسفتهم أنّ الشُهب لا تفنى وهذا ليس صحيحاً والدليل أنّ شهابهم قد هلك . [29]

فالموت نهاية العمر ويضرب بسهامهِ التي تصيب المرء في أي وقت فلا عجب منه لأنّهُ حدّ لحياة الانسان ، فمهما طالت الايام والاعمار فهي راجعة ، ولا حيلة مع الموت الذي أعتبرهُ الشاعر أمرٌ لابُدّ منه .

وهذه الدلالات التي اثرت النص جاء بها الشاعر من خلال الثنائية الضدية التي أغنت النص بدلالات عميقة فالثنائيات الضدية المعنوية (الموت ، الايام) ، (المنية ، الاعمار) .

كشفت لنا عن ثنائية (الحياة والموت) فالشاعر لم يستعمل ما يقابل الموت مباشرةً بل جاء بلفظة قريبة من الحياة أو تعبر عنها وهي (الايام) فأضمر الطرف الآخر من الثنائية الطرف الصريح ليجعل القارئ يشترك

في كشف المضمر , فالأيام تدل على استمرار الحياة التي لا تدوم لأي انسان ، فالشاعر شغل النص ببنية الثنائيات الضدية المعنوية وتعددت الدلالات فيه .

وذكر الشاعر عَجز الانسان وقلة حيلته أمام الموت ، فالموت يُعيد ما اخذه الإنسان من العمر, واستفاد منه . [30] , فعبر الشاعر عن مشاعر صادقة حيال الموت والحياة.

إنّ لفظة الموت تستدعي نقيضها وهي لفظة (الحياة) التي تغيب عن الذهن ، وهذا الغياب يُشكل انساقاً في النص بدلالة اعمق في المعنى منها لو كانت ظاهرة على السطح[31] . فالدلالة العميقة تصل بنا إلى المعنى أسرع من الدلالة الظاهرة .

ولا تقتصر ثنائية (الحياة والموت) على غرضٍ دون آخر فالشاعر لجأ لهذه الثنائية في غرض الغزل وعبّر عن شدة عشقه بالموت ، ومنهُ قوله : [32]( الكامل )

الوَجهُ مِنكَ عَنِ الصَوابِ يُضِلُّني وَإِذا ضَلَلتُ فَإِنَّهُ يَهديني
وَتُميتُني الأَلحاظُ مِنكَ بِنَظرَةٍ وَإِذا أَرَدتَ بِنَظرَةٍ تُحيِيني [33]

الشاعر أراد أن يبين تأثير الحُب في نفسه فهذا الحب يُضل ويهدي ويُميت ويُحيي ، ولم يُرد الموت الحقيقي ، فهو يتوق إلى لقاء المحبوبة التي بوصلها له تعيد اليه المشاعر المفعمة بالحياة المتمثلة بنظرة منها ، وهذا التعبير مجازي وليس حقيقي ، فكانت الثنائية الضدية اللفظية (تميت ، تحيي) هي من زادت المعنى جمالاً ، وعززت الدلالات ، وأوصلتنا إلى عمق احساس الشاعر وتجلت هذه الثنائية في فخر الشاعر في اقدامهِ وشجاعته في المعركة إذ يقول : [34]( الوافر)

إِذا ما عِشتِ في ذُلٍ وَعَجزٍ فَهَل لِلنَفسِ غَيري مِن مُعِزّ [35]
وَلَيسَ الخَوفُ مِن أَجَلٍ بِحَرزِ وَلا ثَوبُ البَقاءِ بِثَوبِ عِزّ
فَيُطوى عَن أَخي الخَنَعِ اليَراعِ
وَلا أَعتاضُ عَن رُشدٍ بِغِيّ وَثَوبُ العِزّ في نَشرٍ وَطَيّ
لَقَد حُتِمَ الثَناءُ لِكُلِّ شَيّ سَبيلُ المَوتِ غايَةُ كُلِّ حَيّ
وَداعيهِ لِأَهلِ الأَرضِ داعي
أَأَرغَبُ بَعدَ قَومي في نَجاةٍ وَأَجزَعُ في الوَقائِعِ مِن مَماتِ [36]
وَأَرضى بِالحَياةِ بِلا حُماةٍ وَما لِلعُمرِ خَيرٌ في حَياةِ
إِذا ما كانَ مِن سَقَطِ المَتاعِ

هذه المسمطة التي قالها الشاعر تحمل ثنائية الحياة الموت خلف الثنائيات الضدية المعنوية (اجل ، بقاء) ، (نجاة ، ممات) والثنائية الضدية اللفظية (الحياة ، الممات) والشاعر اظهر فخره بنفسه واشبع المعنى من خلال بنية التضاد ؛ ولان الموت حاضر في المعركة وقريب من الشاعر استعمله وتداعى له ضده (الحياة) فالعلاقة الضدية تكون اداة فاعلة في كشف مكنونات النص الشعري . اضافة الى الحركة الفاعلة التي احدثتها هذه الثنائيات في النص .

وكُلّ انسان مُدرك أنّ لا سبيل للخلود في الحياة وانّ نهاية المطاف لكل حياتنا بتفاصيلها الجميلة والسيئة هو الموت .

ولغرض المديح الديني نصيب من هذه الثنائية الضدية التي موضوعها الموت والحياة ومن ذلك ما نجدهُ في قول الشاعر:[37] ( البسيط )

فَلا أَخُلُّ بِعُذرٍ عَن مَديحِكُمُ ما دامَ فِكري لَم يُرتَج وَلَم يُعَقِ

فَسَوفَ أُصفيكَ مَحضَ المَدحِ مُجتَهِداً فَالخَلقُ تَفنى وَهَذا إِن فَنيتُ بَقي [38]

الشاعر يُعاهد نفسه على ان لا ينقطع عن مدح الرسول الكريم محمد (صل الله عليه وآله) مادام فكره قادراً على النظم والخلق كلهم قانون ولكن شعرهُ في المدح يبقى لهُ ذخراً[39] , ومن خلال الثنائية الضدية اللفظية (تفنى ، بقي) استطاع أن يكون الشاعر قريباً إلى العاطفة والفكر ، فتجلت ثنائية الحياة والموت خلف الثنائية الضدية (فناء ، بقاء) ووجود التضاد في النص الشعري يفضي الى وجود انساق من الدلالات في النص ، تولّدها الثنائيات الضدية , فالتضاد له اثره الواضح في الدلالة .

والمدح الديني لدى صفي الدين الحلي من الفنون الشعرية التي يعتبرها وسيلة للتعبير عن عاطفته الدينية ، المعبرة عن ايمانه ، وحبه واخلاصه للرسول الكريم[40] , والشاعر يعبر عن فكرته من خلال الجمع بين المتضادات , وهذا الجمع يجعل النص اكثر تعبيراً والصورة اوضح , فيُشكل تناغماً بين الحركة والدلالة .

ومن خلال الصورة التي رسمها الشاعر بهذه المتضادات التي عبر بها عن المدح الذي لا يزول بفناء صاحبه , فهو باقٍ ومُخلّد ، فلذلك احتاج الشاعر الى ثنائية الموت التي استدعت نقضيها (الحياة) ، واراد بذلك الحياة المعنوية .وصفي الدين الحلي كتب في موضوعات متنوعة وجدناها في ديوانه ، ولم نجد في غرض الهجاء سوى مقطوعات قصيرة نظمها تقليداً للشعراء , فلذلك نجدهُ مقلاً في هذا الغرض ، وانماز هذا الغرض لدى الشاعر بالسخرية والفكاهة [41] . فلم يكُن غرض الهجاء كباقي اغراض شعره التي احتلت مساحة واسعة من الديوان .

ومن ذلك نجد لهُ بعض هذه المقطوعات والابيات التي استعمل فيها ثنائية الحياة والموت اذ يقول : [42] (المتقارب )

وشادِنٍ يُشتتُ شملَ الطرب  يميتُ السرورَ ويُحيي الكُرب[43]

بوجهٍ يُبيد أذا ما بدا  وكفٍ تضرُّ اذا ما ضرب [44]

الشاعر يهجو مطربا ويسخر من صوته الذي يعكر الصفو ، ورافق هذا الصوت الثقيل وجهاً كدِراً , ومنظره وهيئته لا يسران الخاطر ، وجاء بثنائية ضدية لفظية (يحيى ، يميت) ليرسم لنا صورة انزعاجه من هذا المطرب وصوته الذي امات كل البهجة والسرور في نفوس الحاضرين واحيا فيهم الحزن والتعاسة ، وجاء استعماله لهذه الثنائية (الحياة ، الموت) لما فيهما من معانٍ تقضي الى ايحاءات متعددة الدلالة ، فالموت يمثل الظلام في حياة الانسان وبحضوره يموت الفرح ,اما الحياة فتمثل النور والاشراق في حياة الانسان ، فجعل الشاعر الموت والحياة معنوياً وليس حقيقاً ، والثنائيات الضدية ضاعفت من الايحاءات في النص, وهذا يدفع بالمتلقي الى الكشف عن الدلالة المتولدة من بنية التضاد [45] . فالصورة التي يرسمها الشاعر تدفع المتلقي للبحث عن المعاني الكامنة خلف الثنائيات الضدية.

ويأتي دور الثنائيات الضدية في النص الشعري والذي يحمل موقف الشاعر من الحياة والموت و الشعور المتناقض بين الامل والياس , والذي يحمل عدة دلالات تكشف لنا التناقض الحاصل من خلال رؤية الشاعر ، فالتضاد له اهمية في النصوص الشعرية , فالشاعر يبرز تجربته الشعورية من خلاله , ويُساعد التضاد في شد المتلقي الى النص ليخوض وراء النص واستجلاء المعاني ، ومساهمة التضاد في ربط النصوص الشعرية وانسجامها , وتحريكها لفضاء النص .[46]

ونجد هذه الثنائية الحياة الموت في وصف الشاعر لرماية البندق واحوالها قائلا : [47]( الرجز)

لا تَسكُبِ الدَمعَ عَلى عَيشٍ مَضى  وَلا تَقُل كانَ زَمانٌ وَانقَضى

وَاغتَنِمِ الغَفلَةَ مِن صَرفِ القَضا  فَالمَوتُ كَالسَيفِ مَتى ما يُنتَضى [48]

تُضحي لَهُ أَعمارُنا ضَرائِبا

جعل الشاعر الموت كالسيف الذي يقطع الاعمار ,والموت هو الضريبة التي يدفعها الانسان ، وبهذا فالشاعر اراد اضفاء الجمالية الشعرية على النص بذكر ثنائية الحياة والموت في الثنائية الضدية المعنوية (الموت ، الاعمار) وواضح أنّ الشاعر يدعو الى الاستمتاع بالحياة وملذاتها قبل ان يقطع السيف كل صلة بالحياة ويكون الموت المصير الحتمي والنهاية المؤكدة للإنسان ، وحقق الشاعر من خلال التضاد الاثراء الدلالي ، فنجد تعدد الدلالات التي تحفز القارئ لاكتشافها , وهذه الثنائيات المتقابلة جعلت المعنى اقوى ،

وما تجود به هذه المعاني من حمولات معرفية تتوتر فيها الافكار ، فتشكّل العلاقات الضدية ابرزت جمالية النص الشعري [49]فالثنائيات الضدية اضافت القوة في المعنى والجمال , ونخلص الى ان الثنائية الضدية (الحياة ، الموت) موضوع شغل حيزاً واسعاً من شعر صفي الدين الحلي وفي اغراض متعددة ، وجاء ذكر الحياة والموت في شعره الذي مثل تجربة مرّ بها الشاعر في حياته واهمها عدم الاستقرار والامان للحياة التي تتقلب بأحوالها ونهايتها الموت القاطع ، فالحياة والموت تحمل التناقض الحقيقي في الواقع الذي يعيشه الانسان ، وفي الشعر تعدى الشاعر استعمالها في الحقيقة وخرج بها الى المجاز ؛ فلذلك نجد تعدد دلالاتها في النص فحملت معان عدّة يمكن اكتشافها في ثنائية واحدة ، وعبر بها عن مشاعر متناقضة تنتهي بالتوحد ، وتصل الى القارئ من خلال كشف المعنى المتواري خلفها.

هوامش البحث

١-معجم التعريفات , الجرجاني : ١٩٩

٢-ينظر : بنية التضاد في قصيدة الميلاد والموت لعبد الوهاب البياتي , (رسالة ماجستير) : ٣٣

٣-ينظر : الموت في الشعر العربي : ٥٩ , ٦٠ , ٦١,

٤-العنكبوت / ٥٧

٥-ينظر : الثنائيات الضدية وابعادها في نصوص المعلقات , ( بحث) : ٢٩

٦-ينظر : الموت في الفكر الغربي : ٦

٧-الثنائيات الضدية بحث في المصطلح : ١٠٨

٨-الموت في الفكر الغربي ١٨٩

٩-ينظر : دراسات نقدية في ادبنا المعاصر: ٢٥

١٠- ال عمران / ١٦٩

١١- الموت في الفكر الغربي :١٩٨

١٢- ينظر : جماليات التضاد في النسق الشعري عند الجواهري ,( بحث) : ٩

١٣- الديوان : ٣٢٩

١٤- المصدر نفسه : ٣٦٤

١٥- ينظر : لغة التضاد في شعر امل دنقل : ١١٠

١٦- الديوان : ٣٤١

١٧- ينظر : تجليات التضاد في شعر الحطيئة ,( بحث ) : ١٢

١٨- الديوان : ٣٣٩

١٩- المصدر نفسه: ٣٨٦

٢٠- ينظر : ذكر الحياة والموت في شعر طرفة بن العبد , ( رسالة ماجستير) : ٢٠ , ٢٧

٢١- ينظر : الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم : ٣١ , ٣٣

٢٢- ينظر : صفي الدين الحلي : ٧١, ٧٢

٢٣- الديوان : ٣٦

٢٤- ينظر : بناء القصيدة في شعر صفي الدين الحلي : ٣٨٩

٢٥- ينظر : جدلية الخفاء والتجلي : ٦٨

٢٦- ينظر : الموت في الفكر الغربي : ٣٠

٢٧- الديوان : ٣٨٥

٢٨- المصدر نفسه : ٣٥٦

٢٩- ينظر : نحو فعم جديد لادب الدول المتتابعة : ١/ ٢٨٧

٣٠- ينظر : آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي : ١٦٨

٣١- ينظر : لغة التضاد في شعر امل دنقل : ٥٧

٣٢- الديوان : ٤٢٧

٣٣- الألحاظ : النظر في جانب , ينظر: اللسان :٥/ ٣٦٣

٣٤- الديوان : ٢٦, ٢٧

٣٥- معز : اكرمته , احييته , ينظر : اللسان : ٥/ ٣٧٥

٣٦- اجزع : الخوف , ينظر : المصدر نفسه : ١/ ٦٨٥

٣٧- الديوان :٨٦

٣٨- اصفيك : بمعنى جعلتك صفاً , القاموس المحيط : ٧٦٣

٣٩- ينظر : نحو فهم جديد منصف لأدب الدول , ١/ ٤١٥

٤٠- ينظر : شعر صفي الدين الحلي , جواد احمد علوش : ١٦٨

٤١- ينظر : المصدر نفسه : ٢٢١

٤٢- الديوان: ٦٣٢

٤٣- الكرب : الحزن والغم , ينظر: اللسان : ١/ ٧١١

٤٤- يُبيد : ينقطع ويهلك , المصدر نفسه : ٣/ ٩٧

٤٥- ينظر : فاعلية التضاد عند ابي تمام , ( بحث ) : ١٠٨

٤٦- ينظر : تجليات التضاد في شعر الحطيئة , ( بحث ) : ٨ , ١٠

٤٧- الديوان : ٢٤٦

٤٨- ينتضى : أي استخرج السيف من غمده , ينظر : اللسان : ١١/ ٦٦٦

٤٩- ينظر: متواليات المثنيات المتلازمة واثرها في تشكيل النص , ( بحث ) : ١٨٥

**المصادر والمراجع**

١- القرآن الكريم

٢- آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي , ياسين الايوبي , رفعه : محمد النجدي , طرابلس , لبنان , ط١ , ١٩٩٥ .

٣- بناء القصيدة في شعر صفي الدين الحليّ , نعيم الوطيفي , مؤسسة دار الصادق الثقافية , ط١ , ٢٠٢٢ .

٤- بنية التضاد في قصيدة عن الميلاد والموت لعبد الوهاب البياتي , زهيرة عبادلية , اشراف د. علي رحماني , الجزائر , جامعة محمد خيضر بسكرة , كلية الاداب , قسم الاداب واللغة العربية , (رسالة ماجستير ) ٢٠١٥ _ ٢٠١٦ .

٥- تجليات التضاد في شعر الحطيئة واثره في الدلالة , نبراس خماس , كلية التربية طوز خورماتو , ( بحث ) , مجلة بحوث اللغات , مجلد ١ , العدد ٤ .

٦- الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم , سمر الديوب , منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب , وزارة الثقافة , دمشق , ( د . ط ) , ٢٠٠٩ .

٧- جدلية الخفاء والتجلي , دراسات بنيوية في الشعر , كمال ابو ديب , دار العلم للملايين , بيروت , ( د . ط ).

٨- جماليات التضاد في النسق الشعري عند الجواهري , انوار سعيد جواد , جامعة كربلاء , كلية العلوم الاسلامية , ( بحث ) , بحوث واعمال المؤتمر العلمي الاستذكاري لشاعر العرب الاكبر .

٩- دراسات نقدية في ادبنا المعاصر , د . حسين علي محمد , دار الوفاء , الاسكندريه , ( د . ط ).

١٠- ديوان صفي الدين الحلي , ابو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي ت ( ٧٥٢ هـ ) , تح : كرم الستاني , دار صادر , بيروت , ( د . ط ) .

١١- ذكر الحياة والموت في شعر طرفة بن العبد , علي يوسف مفرح , اشراف د . عصام فاروق , كلية اللغات , قسم الادب العربي والنقد الادبي , ( رسالة ماجستير ) ٢٠١٢ .

١٢- شعر صفي الدين الحلي , جواد احمد علوش , مطبعة المعارف بغداد , ( د . ط ) ١٩٥٩ .

١٣- صفي الدين الحلي , محمود سليم رزق , نوابع الفكر العربي , دار المعارف بمصر , ( د . ط ) .

١٤- فاعلية التضاد وجماليته في تشكيل الصورة البصرية عند ابي تمام ( غزلياته انموذجاً ) , د . عائشة انور عمر , جامعة تكريت , كلية العلوم السياسية ( بحث ) ,مجلة الدراسات التاريخية والحضارية ( مجلة علمية محكمة ), مجلد ٦ , العدد ١٩ , ٢٠١٤ .

١٥- القاموس المحيط , الفيروز ابادي , مجد الدين محمد بن يعقوب , ( ٧٢٩ , ٨١٧ )هـ , تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي , دار احياء التراث العربي , بيروت , لبنان , ط٢ , ١٤٤٢ هـ , ٢٠٠٣ م .

١٦- لسان العرب , ابن منظور , محمد بن مكرم ابو الفضل , جمال الدين الانصاري الافريقي , ت( ٧١١)هـ , ( د . ت ) , دار صادر, بيروت , ط٣ , ١٤١٤ هـ .

١٧- لغة التضاد في شعر امل دنقل , عاصم محمد امين , دار صفاء , عمان , ط١ , ٢٠٠٥ .

١٨- متوالية المثنيات المتلازمة في تشكيل النص الشعري قراءة في ( وطن بطعم الجراح ) مشتاق عباس معن , د. سعيد حميد كاظم وناس , مديرية تربية محافظة كربلاء المقدسة , ( بحث) , ديوان الوقف الشيعي , العتبة العباسية المقدسة , مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات , المجلد ٨ , العدد ٣ , ٢٠١٩ .

١٩- معجم التعريفات , علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني , ت ( ٨١٦ هـ) , تح : محمد صديق المنشاوي , دار الفضيلة , القاهرة , ( د . ط ) .

٢٠- اموت في الشعر العربي , محمد عبد السلام , مراجعة : حمادي صمود , ترجمة : مبروك المناعي , مؤسسة مؤمنون بلا حدود , المغرب , الرباط , ط١ , ١٩٨٤ م .

٢١- نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه , نعيم الحمصي , الجمهورية العربية السورية , جامعة تشرين اللاذقية , مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية , ١٩٨١, ١٩٨٢ . ج١ .